قصة قصيرة

الرجل والسيقان

إدريس الصغير

«كيف تنالين رضى مديرك» الطبعة الثالثة عشرة.

ناولتها الورقة المالية، فابتسمت وقالت، لا، الاداء في الصندوق. أشارت إلى يمينها فالتفت إلى يساري، فرأيت رجلاً يبتسم وأمامه آلة حاسبة وبطاقة كتب عليها [صندوق] قال لي دون أن يتكلم. هات. ناولته الورقة المالية وأنا أتعجب من قدرته على التعبير باستخدام عينيه دون لسانه. أخذ منها نسخة الكتاب، فقرأ العنوان ثم تبادلا معاً نظرات ذات معنى وكتما ابتسامة غاظتني. اتكأت على الحاجز الخشبي، الذي يفصلني عنها فرأيت ساقيها.

قلت محاولاً ازالة سوء الظن بي الذي سيكون قد علق حتماً بذهنه مما سيجعلني موضوعاً يتندر به في أوقات فراغه:

– في الحقيقة، أنا جئت أبحث عن كتاب «كيف تنال رضى مديرتك» لكنه نفذ، لذلك...

قاطعتني الفتاة:

– كما قلت منذ قليل، هذا كتاب يفي بالغرض. كن متأكداً أن الكتابين متشابهان، وهما للمؤلف نفسه. أنا قرأتهما. لقد اكتفى بتحويل المذكر إلى مؤنث، والمؤنث إلى مذكر، مسألة بسيطة.

قلت: ربما!

قالت: أنت حتماً تستطيع تحويل المذكر إلى مؤنث.

ابتسمت وغمزت لي بعينها فشككت في براءة الحديث عن التذكير والتأنيث. نظرت مرة أخرى إلى ساقيها. بينما كان هو يلف لي نسخة الكتاب في لفافة من ورق سجل عليها بحروف بارزة، اسم المكتبة وعنوانها ورقم الهاتف. قلت له: لا داعي.

خلت أنه لم يسمعني، فقالت الفتاة: هذا إجراء ضروري. وأشارت بعينيها نحو باب الخروج، فرأيت رجلاً يفحص الخارجين من الزبائن الذين لا يستطيعون الخروج إلا واحداً وراء واحد نظراً لضيق باب الخروج المتعمد، بينما علقت كاميرات في كل زوايا المكتبة. حركت رأسي ومططت شفتي، ففعلت الفتاة الشيء نفسه.

تأبطت اللفافة وطرت إلى البيت. لم أقبل زوجتي عند الباب كما هي عادتي. في الحقيقة أنها عادة ركبتني أو ركبتنا من كثرة مشاهدتنا لبرامج التلفزيون والأفلام السينمائية.

دلفت مباشرة إلى غرفتي وأغلقت الباب ورائي. سمعت زوجتي تقول وكأنها تخاطب نفسها: «لقد أتته ثانية حالاته». لم أهتم. كنت في حاجة إلى فنجان قهوة. عرفت أنها لن تجيب طلبي الآن. ولم يكن لي الوقت الكافي لأهيئه بنفسي. قلت: «لا يهم» أشعلت سيجارة ومزقت اللفافة ثم فتحت الكتاب:

الاهداء:

«إلى زوجتي العزيزة التي ساعدتني في إنجاز هذا الكتاب».

وماذا يهمني أنا من ذلك؟! قلبت الصفحة.

«المقدمة»

عشرون صفحة! تصوروا؟! ثلث الكتاب بالتمام والكمال. لست أدري لماذا يصر هؤلاء الكتّاب على إثبات مثل هذه المقدمات الطويلة العريضة التي لا تضيف أو تنقص شيئاً. قفزت المقدمة.

«الباب الأول»

- لماذا هذا الكتاب -

أووف. أتراك لم تقل هذا في المقدمة؟ افرجها يا رب. متى نصل إلى السيقان؟

ماذا قلت؟ السيقان؟ عفواً أيها القارىء الكريم، لا بد أن أتوقف لأحكي لك موضوع السيقان.

السيقان هي مصدر البلاوي بالنسبة لي. سيقان النساء حتى أكون دقيقاً (أقصد دقيق التعبير وليس طحيناً طبعاً. هاها) حتماً ستودي بي سيقان النساء يوماً إلى السجن أو المقبرة أو المستشفى. أي مستشفى هكذا إطلاقاً دون تحديد. الآن. الآن بالضبط وأنا أحادثكم- حرمني الله من جنته إن كنت كاذباً- أرى أحرف الكتابة مكتوبة بالسيقان. سيقان النساء. تصوروا أحرفاً من السيقان. المهم. الظاهر أنني إذا أطلقت العنان للساني، فلن أحكي لكم قصة السيقان. صحيح أن الحديث ذو شجون، والعامة عندنا تقول «اللسان ليس به عظم» معنى هذا أنه طري يزل بصاحبه ويُقَوّلُهُ ما لم ولا يود أن يقوله. أتمنى ألا يكون لساني قد زلّ بي حتى الآن وأنا أتحدث إليكم. فقول أشياء متماسكة مزية قل من يحظى بها في أيامنا هذه.

المهم: اسمعوا حكاية السيقان.

المسألة ابتدأت بهذا الشكل. التحقت منذ شهور صباحاً بمقر عملي الجديد الذي نقلوني إليه نقلاً تأديبياً. ظلموني وحق الكعبة الشريفة. وقصة التأديب هذه أفضل ألا أخوض فيها الآن لكثرة ما فيها من آلام تنغص مجرد ذكراها علي عيشي. لم أكن أعرف أحداً. سألت أول شخص قابلني: «من فضلك. مكتب المدير؟» قال: «ليس لنا مدير، إنها مديرة» قلت: «أنا...» قاطعني: «سر من هنا، وادخل من الباب الزجاجي، ثم ابدأ العد من اليمين. المكتب الأول لا، والمكتب الثاني لا، والمكتب الثالث هو.»

حين دخلت مكتبها رأيت ساقيها. صدقوني، كان أول ما رأيت هما الساقان. عادة أول ما يطالعك من الشخص صلعته أو أنفه أو أسنانه المكسورة. لكنني لم أر سوى الساقين. ناولتها الإشعار بالإنتقال، فجلست إلى مكتبها، واقتعدت أنا أحد الكراسي المخصصة للزوار. ظلت تتحدث، وظللت أنا منكس الرأس أتمعن في الساقين. كان مكتبها من النوع الذي لا يتوفّر على حاجز خشبي في مقدمته. لم أسمع من كلامها شيئاً. حتماً كان نصائح وتوجيهات يحفظها كل مدير عن ظهر قلب. أخيراً قامت فقمت وقالت: «لا تنكس رأسك بعد الآن، سأعتبر انتقالك عادياً وليس تأديبياً. لنفتح صفحة جديدة».

أمضيت الأسبوع الأول من عملي بالمقر الجديد وأنا أتابع سيقان الموظفات. ثم أصبحت أصطاد السيقان في الحافلات والأسواق والشوارع. أنظر إليها. أتمعن. سيقان مكتنزة. سيقان بضة. سيقان مرغبة. سيقان دوحاء... في المنام، ترفسني السيقان. تحاصرني. تكبلني.

أمس حين دخلت مكتبي صباحاً قال الشاوش: «المديرة تستدعيك» حين دخلت مكتبها لم أر الساقين. كانت ترتدي اليوم سروالاً. وكانت تقلب أوراق ملف اهتديت فيه إلى خطي بسهولة. هو نفسه، التقرير الذي كتبته أول أمس عن اجتماع رؤساء المصالح برئاسة السيدة المديرة. قالت: «وأنا التي كنت أظن أنك تنكس رأسك خجلاً؟ انظر يا حضرة المقرر، أسلوبك الجديد في انجاز التقارير». مدت لي يدها بالتقرير، فمددت يدي وبدأت القراءة سراً. لاحظت أن معظم ما كتبته أحيط بدوائر وعلامات استفهام وتعجب بالقلم الأحمر. كدت أصعق:

١ - يطالب رؤساء المصالح السيد الوزير بأن يتفضل بتزويد كل مصلحة بساقين مزغبّين.

٢ - مصلحة التموين في حاجة إلى طن من السيقان الروحاء.

٣ - الشواش في حاجة إلى ساقين بَضَّتَين لكل واحد.

٤ - .....

لم أستطع الاستمرار، وتأكدت أني إما أن أكون أحمق أو مريضاً أو أن شيطاناً أخضر ركبني.

كانت تداعب بيد إطار نظارتيها، وتوقع بقلم في يدها الأخرى إيقاعاً منفعلاً على حافة مكتبها.

قلت في نفسي: «انفعلي كما يحلو لك، ألست أنت السبب؟».

«الباب الثاني»

- كيف تختارين ثوب العمل -

أووف. كل هذا لا يهمني. بدأت الطرقات خفيفة على الباب. ثم بدأت تشتد شيئاً فشيئاً حتى خلت أن الدفة ستنفصل عن الرتاجين. صحت متضايقاً. ماذا؟ قالت أخرج، فخرجت، ورأيت ساقيها.

المغرب